الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

ما أقصرها من رحلة !

(مِن نُطفَةٍ خلقَهُ فَقدَّره ۞ ثُمَّ السَّبِيل
يسَّرَه ۞ ثُمَّ أَمَاتهُ فَأقبرَه)

ثلاث آيات تختصر الحياة..

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

تخيّل معي لحظة صمت عميق في قلب الكون المترامي الأطراف، حيث تتجمّد النّجوم في مداراتها، وتهدأ رياح الأزل، وينقطع همس البشريّة، وفي حرم هذا الصمت المقدّس، تولد قصة الإنسان...

فتبتدأ بقطرة ماء مهين، وتنتهي بحفنة تراب في جوف الأرض، وما بينهما خيط رفيع يسمّى "الحياة"، وها نحن نسميّه برحلتنا القصيرة....

فهي رحلة لم يسطع أدباء الأرض عليها وصفاً، من أولى خطواتها، ولا استطاع حكماؤها لها فهماً وإدراكاً لآخر لحظاتها....فهي بلحظاتها طالت أم قصرت، رحلة محيّرة، عجيبة، قصيرة المدى، عظيمة المغزى، خالدة الأثر....

وها هي ذي في كتاب اللّٰه الحكيم، ترد في آيات ثلاث تلخّصها وتجمّلها، كأنّها ثلاث محطّات في قطار الحياة:

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ حيث هي محطّة البداية..

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾، وهنا محطّة المسير...

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾لتكون محطّة النهاية...

ففي المحطة الأولى، تذكير للإنسان ببداياته قبل أنْ تأخذه صولة الحياة، فقد بدأ بقطرة مهينة لا عقل لها ولا شكل ولا وجه ولا اسم، فلم يكن منشؤه من ذهب ولا معدن نفيس، وإنّما مجرّد ماء دافق لا قيمة له لكنّه كان سبباً لوجوده بأكمله...ومن هذه النطفة كان تقدير اللّٰه لشكله وعقله ورزقه وأجله، وموطن ميلاده وصحته ومرضه وحزنه وفرحه وسعادته وكمده، وكلّ ما هو مكتوب له في الدنيا والآخرة، ولتقدير كلّ شيء من اللّٰه على الإنسان فإنّه لا يوجد فضل للإنسان يدّعيه على خالقه ومن قدّر له كامل أمور حياته ومماته..

فهنا حكمة تستقى من هذه المحطة، وهي التّواضع، ففي تذكّر البدايات زيادة للتواضع والانكسار أمام اللّٰه، وفي نسيان البدايات زيادة للتّكبّر والطغيان ..

وفي المحطة الثانية، تظهر مسؤوليّة الاختيار، ففي حياتنا تبدأ امتحاناتنا، بكلماتنا وهمساتنا وخطواتنا وقراراتنا ومواقفنا، وفي هذا الطريق الذي يسّره اللّٰه لنا جعل بين أيدينا الخيار لا الإجبار، وفيه خيار ميسّر لا معسّر، فلا صعوبة في اختيارنا مهما كان، فالسّبل بأكملها مفتوحة على مصراعيها، فسبيل الخير أمامنا، وسبيل الشر أيضاً، فبين الهدى والضلال هنكا يقبع اختيارنا بكامل إرادتنا، فإنْ أردنا سبيل الخير يسّره اللّٰه لنا، وإنْ أرادنا سبيل الشر سهّله لنا وهيّأ لنا أسبابه، وفي نهاية هذه الإرادة وذلك الاختيار إمّا الجنّة أو النّار، فالحساب بالانتظار...

ARAB-PSF.COM

وهنا حكمة تستقى من هذه المحطة، حكمة تقتضي كون الإنسان عظيماً ودوره حيويّ، فهو ليس مجرّد وجود ثانويّ على الهامش، ليأكل ويشرب وينام، إنّما هو مخلوق مكرّم، مُخيّر، مسؤول عن اختياراته.

أمّا المحطة الثالثة، ففيها النهاية الحتميّة التي لا مفرّ منها، ففيها القبر لا الخلود، وفي تلك الحفرة إلغاء لكامل مظاهر الحياة، لا الغنى ولا الفقر يمنع تلك الخاتمة، ولا القصور ولا الأموال تغني عنها، ولا الجسد يبقى، ولا المال يصدّ عن حساب، ولكنّه العمل وحده ما سيرافقنا، الصالح منه والطالح..

وهنا حقيقة تستقى وحريّ بنا تذكّرها لا تناسيها، وهي أنّ الموت كأس الكلّ ذائقه، ولا مفرّ منه، والناس في غفلة عنه، وفي واقع الأمر فالناس أموات في هذه الحياة بالغفلة والنسيان، فإنْ ماتوا استيقظوا....

فبعد تلك المحطّات القصيرة....

لم الهمّ العميق؟

ولم قضاء الليالي في أرق التفكير، وسهد التعليل، ولم حمل الهموم على عاتقنا؟ ولم وضع احتمالات بما كان وما قد يكون، وما هو لو كان أو لم يكن كيف كان سيكون..... لم كلّ ذاك ونحن نعلم متى كانت بداياتنا، ولكنّنا على جهل تامّ متى ستكون نهايتنا، فلعلّها أقرب ممّا نتصوّر ولن تتيح لنا تفكيراً بالغد وما يحمله من تقادير...

ولم الحزن على ما فات، ونحن نعلم بأنّه لم يكن مقدّراً لنا، ولم الأسى على ما هو آت ونحن لا نعلم ما هو محسوب لنا، ولم الألم على ما يحدث الآن وهو مكتوب علينا قبل أنْ نخلق، فما أصابنا ما كان ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا...

ولذلك فلنتذكّر...

بأنّ الطريق مفتوح أمامنا، والقرار بيدنا، والوقت لصالحنا...فلنختر ما يرضي اللّٰه ليرضينا...

ولنتذكّر المصير قبل أنْ يفنينا....ولنبنِ قبورنا بأعمالنا الصالحة قبل أنْ تبنى لنا... فلا يأتي وقت نوضع فيه في القبور ونقول: يا ليتنا تبنا من قبل أنْ تبنى...

ولنستثمر في الآخرة قبل أنْ نستثمر في الدنيا...ولنزرع الآن لنحصد في الآخرة...

فنحن في ثنائيّة مهيبة، قصر الرحلة وعظمة النهاية، فإمّا لجنة عرضها السماوات والأرض، وإمّا لجحيم مستعرّ وقودها الناس والحجارة، وتقول هل من مزيد..

فلنغتنم وقتنا من الدنيا قبل أن ينتهي بنا المطاف إلى آخر محطاتها: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾....

فلنجعل كلّ حركاتنا وسكناتنا فرصة للتقرّب إلى اللّٰه، ومن كلّ ليلة محاسبة للذات، وفي كلّ صباح بداية جديدة للعمل الصالح، فهذه الحياة أمانة في أعناقنا، والوقت رأس مالنا، والعمر ثروتنا الحقيقيّة...

فطوبى لمن استغلّ وقته أحسن استغلال، وتربت يدا من يعمل لدنياه كأنّه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنّه يموت غدا...